



قصيدة القبو الزجاجي مرثية شعرية مطولة جاءت في صورة رسالة وجهها د. صابر عبد الدايم إلى السلطان العثماني العظيم «محمد الفاتح» وألقاها في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية الثامن في مدينة إستانبول في ١٣ من أغسطس عام ٢٠٠٨م.

وتتكون الرسالة من أحد عشر مقطعاً، تضم هذه المقاطع أكثر من مائة وستين سطرًا شعرياً.



القبو الزجاجي مرثية أمة ودعوة لابتعاث أمجادها

للدكتور صابر عبد الدايم

تمر بها الأمة، وربما كانت من أسوأ ما مرت به من مراحل في تاريخها الحديث والمعاصر، وأشد حقبه تدهورا، وأظهرها ضعفا وهوانا، وهي في غنى عن أن تذكر بانتكاساتها المتداعية وانهاياراتها المتتالية، فهذه المآسي والنكبات يعيشها ويدركها القاصي والداني، وآخرها كان هولوكست الإبادة الصهيوني في غزة، ومن قبله في قانا وجنوب لبنان وجنين وغيرها.

وحرب الإبادة الأخيرة في غزة كانت بجرائعها ومواقفها المخزية

وهي تماثل تلك الرسائل الشعرية الكثيرة، الحافل بها تاريخنا الأدبي خاصة في مراحلہ المفصلية والمصيرية والتي ناشد فيها الشعراء وأهابوا بالزعماء والقادة التاريخيين - أن ينتفضوا لإغاثة الأمة، وبهبوا ذودا عن حياضها وصيانة لعقيدتها وأرضها ضد قوى الظلام والطامعين من حلف البغي والعدوان.

ولا غرو، أن توقيت الرسالة ومناسبتها كان مفروضا وسط هذه الظروف شديدة الوطء التي



أحمد رشاد حسانين - مصر

أيها الفاتح. ضيعنا مفاتيح المدائن!
ونسينا البحر والموج وتهليل السفائن!
ونسينا الخيل والرمح وأسرار الكمائن!
سورة الفتح هجرناها وبددنا صداها!
وتراءت في حنايانا أنينا وحنينا!
كل أشجار الفتوحات أراها
عاريات من رؤاها
«**سيوف حبيسة ومضيعة:**»



وما دامت الأمة قد هجرت سورة «الفتح» ونسيت
«الخيول والرمح»، صارت رموزها مجرد ذكرى،
وأسيافها معطلة حبيسة المتاحف والمزارات، موضوعة
في أقبية زجاجية كأثار سياحية ومراسيم ضيافة:

هذه أسيافهم مثلومة تنعى إلينا

حدها المغتال في جوف القبور!!

أيها الفاتح أمسى السيف ظلا

وشاحا ساكنا فوق الصدور!!

إنه أضحى بقصر الحكم مرسوم ضيافة

إنه أصبح نقشا فوق جدران الطلول

كل من يشهده

يقرأ في جبهته عصر روايات الأفلول

على مرأى ومسمع من الأمة والعالم بأسره، هذه
الحرب الظالمة جرت أحداثها الدامية بعد إلقاء هذه
المرثية بيضعة أشهر، وكأن الشاعر كان يتوقع المزيد
من الآلام، والآتي من الانتكاسات في زمن انهيار
وسقوط طال وتوحش وامتد.

ومقاطع المرثية / الرسالة مفعمة بماطفة من
الأسى والحزن العميق ومشاعر كثيفة من الرثاء،
ممتزجة بتطلع وحنين جارف إلى استعادة مجد الأمة

وهيبتها وصفحة وجهها الناصع،
وهذا اللون من الشجن الوجداني
يسري في جسم الرسالة وبنائها
الشعري ألفاظا وتراكيب، صورا
وموسيقى.

«**مفتتح حزين:**»

يفتح الشاعر مقاطع المرثية
بنداء للسلطان العظيم فيه
تعظيم وإشادة بقوله:

«أيها الفاتح» والشاعر بهذا
النداء يحاول أن يستجمع قدر

طاقته - كل ما يرتبط بالفاتح من معان وما يتصل به
من أمجاد ليصنع مفارقات كثيرة ويستحضر أحوالا
شديدة التباين بين سيرة الأمة المستدعاة مع نداء
الفاتح من جهة وواقعها الأليم الباعث على الرثاء
والمفجر للأحزان من جهة أخرى.

«**ملاحم لزمن الضياع:**»

وفيما يشبه تقاليد التعديد في ريفنا المصري، أو
ما يماثل ملاحم رثاء الممالك والدول في أدب الأندلس
«فردوس الإسلام المفقود» - تتوالى المقاطع الشعرية
تشير إلى واقع الأمة في سطور متتالية، ولما كانت
أوجاع الأمة كثيرة وأوصابها عديدة، لذا فإن السطور
تومئ ولا تفسر، تجمل ولا تفصل:



«مأساة دار الخلافة»

والشاعر إذ يقف أمام القبو الزجاجي في داخله يردد سيف الفاتح العظيم، وبجواره سيف الإمام علي «ذو الفقار» يأتي مجرداً، مثقلاً بالأحزان، لا يملك بين يديه وفي وجدانه إلا هويته الإسلامية التي يرتفع صوته بها معلناً عقيدة التوحيد، لائذا بها، متشبهاً بنورها وأصالتها، فهو لم يعد يحوز سواها، وهو إذ يدخل قاعة «آيا صوفيا» حيث الآثار والرموز، يقدم نفسه بنسب العقيدة وأصرة القربى الإسلامية للفاتح العظيم، ولكنه لا يجد سوى أشلاء من العهد الطمحين، ورائحة من أطلال تاريخ وأشباح رجال، ويتذكر الشاعر قصيدة شوقي في كمال أتاتورك:

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب

ويتساءل: أي فتح ذاك الذي خدع فيه أمير الشعراء؟ لقد كان فتح شؤم على الأمة، وضياعا للخلافة، وطمسا لوجهها الناصع الذي كان يتألق في الأفاق، وسترافص متباها على صفحات البسفور. ويصحح الشاعر بعض المقولات التي راجت عن أتاتورك، ويوضح الجرائم التي ارتكبتها في حق المسلمين:

فلقد ألقى بماء النار في وجه الخلافة

شوه الوجه السماوي الجميل

جعل البسفور ملهى

للغرايا

فيه يسبحن ويعبرن مضيق الدردنيل

سفن الفتح

ويا للفتح! أحالوها مواخير سكارى العابثين

«أبو أيوب فوق أسوار القسطنطينية»

وينصرف الشاعر عن صورة أتاتورك القبيحة، ويستدعي صوراً أخرى كصورة محمد الفاتح، والصحابي أبي أيوب الانصاري وهو واقف يكبر على أسوار القسطنطينية، هذا التكبير الذي حملته رياح التاريخ العظيم إلى آذان محمد الفاتح فكان محفزاً لفتوحاته، وملهماً لانتصاراته.



د. صابر عبدالديم

ويشتكي الشاعر إلى القائد الفاتح العظيم ما حل بـ «إسلامبول» التي غزاها الجراد ومسجد «آيا صوفيا»، الذي أضحي متحفاً وصار شيخاً محطماً تعصف به رياح العقم، ويستدعي مأساة التغريب والعلمانية وما جلبته علينا من مأس وجرائم يشيب لهولها الولدان في «سرايفو»، و«بيهاثني» في «أبخازيا».

وفي «الشيشان»

«المجاهدون أمل الأمة»

وبعد أن يفيض الشاعر في تذكيرنا بجرائم الصرب والروس في بلاد البلقان وآسيا الإسلامية، ينبئ الفاتح العظيم بالنبأ العظيم والأمل الكبير المتمثل في تلك الحفنة من المجاهدين التي صدقت ما عاهدت عليه الله، فهم الفئة الوحيدة الرشيدة، وهم الفئة التي تحيي مواتنا بالشهادة، وتبعث من رماد العدم شرارة الحياة والخلود:

إنهم من شجر النار يجيئون

إنهم ضوء التجلي

والخيول العاديات الموريات.

إنهم أحفادك الغر الميامين

يقودون سباق الشهداء

«عود على بدء»

وكان الشاعر ابن واقعه وزمنه لا يريد أن يستنيم للحلم، أو تأخذه الآمال السكرى والرؤى الحاملة، فيأبى



إلا أن يعود إلى الفاتح معيدا في حركة دائرية المشهد الأول ومكررا إياه، واضعا يده على أوجاع الأمة لعل الألم يبعث في جسد الأمة المسجى بنبض الحركة، وعل دموع الشاعر الساخنة وآهاته الحارة تبعث فيه دفء الحياة وحرارة العزة والنخوة.

«ظواهر أسلوبية وجمالية»

- ٥- الأساليب الإنشائية تقل في الرسالة عن الخبرية، والقليل منها للتعظيم والإشادة مثل «أيها الفاتح»، أو للحث والحفز مثل: «أقبل»، و«انزع السيف».
- ٦- تكثر صياغات الصور الفنية خاصة الكنايات الموحية المحملة بالدلائل في دقة وإيجاز مثل «نسينا الخيل والرمح»، و«سورة الفتح هجرناها»، «نسينا الموج وتهليل السفائن». كما تلتزم في الرسالة صور مركبة جميلة مثل قوله:

أعود حاملا في القلب مشكاة حزينة

ضوؤها الدري من نيران أشلائي تمتاح الوقود

أو قوله عن ضحايا البوسنة وهم يبادون:

شهدوا أعضائهم تسقط من أجسادهم

- ٧- الموسيقى الصادرة عن تفعيلات الأسطر الشعرية، تتراوح إيقاعاتها بين أنصاف الأبحر التي تطول بنغمة الحزن العميق الممتد، أو تلك الصادرة عن مجزوءات البحور في إيقاعات سريعة متتالية في حالات الاستدعاء المنثال بصور ماضي الأمجاد، أو حاضر ضحايانا في البلقان.

وتتألف الموسيقى الخفية في الرسالة / المراثية من انصهار عاطفة الشاعر الدينية بأفكاره وتعاييره وصوره متجهة صوب المتلقي، ليقف بها لحظة مثيرة بها الوجدان، متأملا بها الحاضر، حيث يحتاج الظرف منا إلى كل جهد مخلص، وإبداع أصيل، وهوية أصيلة ناصعة لمواجهة عالم صار الصدام ونقي الآخر فيه شعارا ومبدأ ■

- ١- تنطلق الرسالة بداية من رؤية وموقف جمالي إسلامي، ونقصد به ذلك التعبير الفني المؤثر النابع من الذات المؤمنة، المترجم عن الحياة أو الإنسان أو الكون وفق الأسس العقائدية للمسلم، والباعث للمنفعة والمتعة، والمحرك للوجدان والفكر، والمحفز لاتخاذ موقف أو تعديل رؤى.

- ٢- من المنطلق السابق تبدو الرسالة مفعمة بالروح الإسلامية، متأثرة بالتعبير القرآني الكريم حيث «سورة الفتح»، و«الصافات الجياد»، و«الخيول العاديات الموريات»، و«واد غير ذي زرع»، وكذلك الرموز من الشخصيات والبقاع التاريخية الإسلامية مثل: إستانبول، وآيا صوفيا، وبيهاشي، والشيشان، والشخوص مثل: خالد، والفاروق، والإمام علي، وغيرهم.

- ٣- يتردد نداء «أيها الفاتح» في الرسالة أكثر من عشر مرات.

- ٤- يتراوح بناء الجمل في تساقق وتوازن بين الصيغ الاسمية والفعلية، ويكثر تردد الفعل الماضي في مواضع التداعي التذكري والثناء، والمضارع يأتي غالبا في جمل خبرية واصفة للحال الراهن ومآسيه، وهو المقصود من المراثية، حيث تقف على الحاضر وهي تسلط عليه أضواء الماضي بفرض المقارنة والمقابلة، ومن ثم الإثارة والتحريك.